الكتب العشرة الأكثر تأثيراً في تاريخ البشرية !

التقدم الهائل الذي وصلت إليه البشرية اليوم، لم يظهر بين يوم وليلة .. إنما جاء من تراكم هائل للخبرات والمعلومات والرؤى والنظريات والأبحاث، التي توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل .. وقرناً بعد قرن ..

في هذه المقالة ، نستعرض معاً الكتب العشرة الذي أثرت في تاريخ (البشرية) بشكل كامل .. نتحدث هنا عن الأصول .. أمهات الكُتب كما يُسميها البعض، التي ارتكزت عليها الحضارة الإنسانية، وقامت بالبناء عليها والتطوير فيها ، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن..

هذه الكُتب العشر ليست من اختياري أنا طبعاً .. بل هي نتيجة إجماع عدد من كبار المُفكرين والعلماء على عدد مُعين من الكتب، اعتبروها أصل العلوم الإنسانية والطبيعية والتقدمية، التي تستخلص منها البشرية دائماً وحي التجربة الأولى ..

باختصار .. هي العشرة كتب الأساسية – غير الكتب السماوية – التي لو لم تكُن قد وجدت .. بالتأكيد لم نكن لنعيش بالطريقة التي نعيشها الآن !

الكتاب الأول: الأمير - ميكيافيللي

هذا الكتاب من أكثر الكتب ذائعة الصيت والتأثير في الوعي الإنساني، خاصة إذا تعلق الأمر بالنظام السياسي والإداري وشؤون الحُكم ..

وعلى الرغم من سُمعته السيئة لدى الكثيرين من الناس بمُختلف ثقافاتهم، خصوصاً مبدأ (الغاية تُبرر الوسيلة) التي أسسها ميكيافيللي، والتي أصبحت مُرادفاً للانتهازية على مر العصور .. إلا أنه يبقى تراثاً إنسانياً أحدث نقلة هائلة في نُظم الإدارة والحكم وتأسيس الدول ..

الكتاب تم تأليفه في العام 1513، وصدرت طبعته الأولى في العام 1532، أي في فترة القرون الوسطى المتأخرة .. وكان ميكيافيللي يهدف من خلاله نقل خبراته السياسية في الإدارة والحكم إلى الأمير (لورنزو دي ميديتشي)، ليعلمه كيف يصل إلى السلطة ويحتفظ بها..

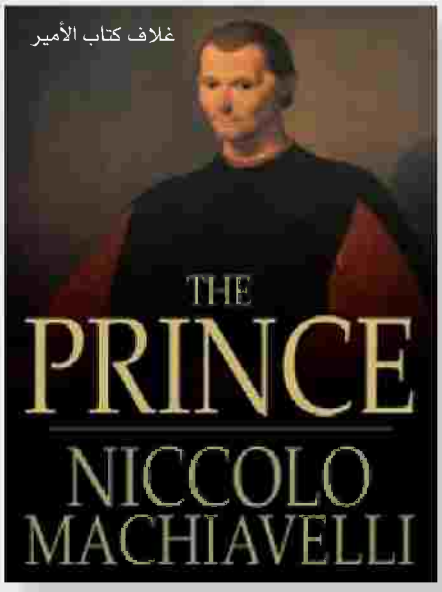

غلاف كتاب الأمير

فيما بعد تم الاعتماد علي على هذا الكتاب بشكل كبير من قبل الدول الأوروبية في أساليب الحُكم والإدارة، ولا يُمكن لأحد إلى يومنا هذا – حتى مُنتقدي الكتاب – أن يُنكر دور ما جاء فيه من نصائح وتوجيهات في مُنتهى الدهاء والذكاء السياسي، مازال حتى اليوم بعض الساسة ينتهجون هذه القواعد، وتؤتي ثمارها على أفضل نحو ممكن !

الأمير .. كتاب غيّر نظم الحُكم والسياسة في العالم أجمع بلا شك ..

غيّرها إلى الأفضل أو الأسوأ .. هذا الحُكم متروك لك أنت !

الكتاب الثاني: المبادئ – إسحاق نيوتن

هذا الكتاب تم الاتفاق عليه أنه من أعظم الكتب التي أنارت تاريخ البشرية على الإطلاق، ويُعتبر هو النواة الأولى للطفرة العلمية الفيزيائية والرياضية، التي اعتمد عليها سائر العلماء والفيزيائيين والرياضيين في كافة اكتشافاتهم واختراعاتهم العلمية إلى يومنا هذا..

(المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) للسير إسحاق نيوتن .. واحد من أعظم شخصيات التاريخ الإنساني، واعتبره البعض زينة للجنس البشري .. حتى أن كتاب (أعظم 100 شخصية في التاريخ) وضعه في المرتبة الثانية مباشرة، بعد الرسول العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم !

نيوتن كتب هذا الكتاب باللغة اللاتينية حتى يتجنب الجدال العقيم مع غير المُتخصصين –

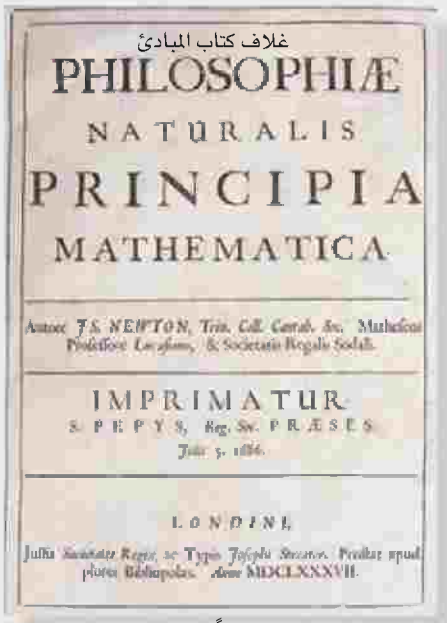
غلاف كتاب المبادئ
PHILOSOPHIÆ
NATURALIS
PRINCIPIA
MATHEMATICA
IMPRIMATUR
LONDINI

لأنه كان ضيق الأفق جداً ! – ، وهو الكتاب الذي وضع فيه قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة التي يعرفها اليوم طلابنا في المدارس الثانوية، والتي استطاع من خلالها تفسير كل ما هو معروف عن الحركة في الكون، وتحليل الظواهر الميكانيكية الطبيعية تحليلاً مُتناهياً في الدقة !

هذا الكتاب العبقري جعل عدداً كبيراً من العلماء – من الذين عاصروه والذين جاؤوا بعده – يتذمرون من نيوتن لأنه لم يترك لهم شيئاً يشتغلون به ! حتى إن أحد العلماء الفرنسيين الكبار (بيير دو لابلاس) قال عنه:

«إن نيوتن كان محظوظاً مرتين .. المرة الأولى لأنه كان يملك قدرة هائلة لاكتشاف أساس الكون فيزيائياً .. والمرة الثانية لأنه لا يُمكن أن يكون له منافس أبداً .. لأنه لا يوجد سوى كون واحد فقط يُمكن اكتشافه» !

الكتاب الثالث: النسبية – ألبرت أينشتاين

النظرية التي سمع عنها الجميع تقريباً، ولا يوجد أحد في العالم – مهما كانت ميوله الثقافية – لم يسمع عنها .. ولكن أغلب من سمعوا عنها لا يفهمونها !

ولكن فهم الفكرة العامة لها كاف جداً للغير متخصصين طبعاً..

نشر العبقري أينشتاين بحثه عن النظرية النسبية العامة في العام 1916، بعد عشر سنوات كاملة من التفكير والبحث .. فتوصل من خلال نظريته تلك إلى العلاقات الأساسية للكون وقام

بربطها ببعضها البعض ..

النظرية النسبية هي باختصار شديد واحدة من أهم وأبدع النظريات التي توصل لها الإنسان من خلال عقل ألبرت أينشتاين ، الذي كان غريب الأطوار جداً كما يعرف الجميع، وكما ترى في الصورة ! .. ولكن – عادة – ما يكون غريبو الأطوار هم العباقرة الذين يُساهمون في نقل البشرية جمعاء إلى الأمام..

المكان بأبعاده الثلاثة .. والزمان كبعد رابع .. ومركب (الزمكان) المُرتبط مع سرعة الضوء .. وهدم نظريات تقليدية، وإطلاق الحياة في نظريات أخرى كان يعتبرها الجميع نظريات خاطئة وفاشلة !

كل هذه المُتع العلمية – المُعقدة طبعاً – تجدها في كتاب لواحد من أعظم العباقرة الذين أنجبتهم البشرية على الإطلاق .. ألبرت أينشتاين !

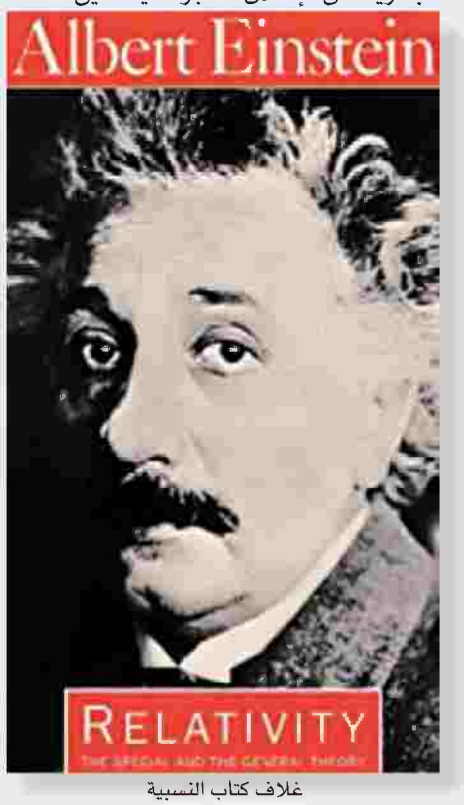

غلاف كتاب النسبية

الكتاب الرابع: أصل الأنواع – تشارلز داروين

هذا الكتاب تحديداً ، يعتبر من أكثر الكتب التي أحدثت ضجة هائلة في عصره، استمر تأثيرها حتى يومنا هذا، ربما لاصطدامها جزئياً بالموروثات الدينية ..

(أصل الأنواع) الكتاب الشهير الذي ألفه العالم داروين في العام 1859، يعتبر – بعيداً عن النقاط المثيرة للجدل – أحد أبرز الأعمال التي أثرت في علم الأحياء التطوري بشكل هائل، فضلاً عن كونها حجر الأساس للعقلية الأوروبية البحثية والفلسفية، والتي امتدت حتى يومنا هذا..

وصف أحد كبار العلماء – توماس كون – نظرية التطور بأنها نموذجاً للثورة العلمية الحديثة؛ لأنها في نظره ليست مُجرد نقلة علمية تقنية شهدها العالم، بقدر كونها تأصيلاً لمنهج جديد في التفكير، وتغييراً جذرياً في العديد من المفاهيم العلمية والإنسانية والفلسفية والوجودية..

لذلك، صنف العديد من علماء العصر الحديث كتاب (أصل الأنواع) الذي استعرض فيه داروين نظريته للتطور، بأنه في أهميته يعتبر رأساً برأس مع كتاب نيوتن (المبادئ) .. بل واعتبر البعض نظرية التطور أكثر أهمية من النظرية النسبية لألبرت أينشتاين، لأنها جمعت بين القفزة العلمية من ناحية، ونظرة الإنسان إلى هويته من ناحية أخرى..

نظرية التطور – بلا شك – أحد أهم وأعقد النظريات المُثيرة للجدل ، والتي – سواءً قبلتها أو رفضتها – لا يُمكن أبداً تجنبها أو تنحيتها جانباً، لما جاءت به من أدلة وبراهين علمية ومنطقية دقيقة..

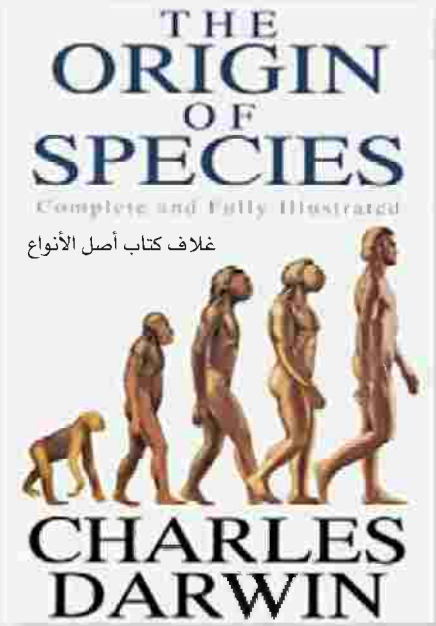

غلاف كتاب أصل الأنواع

الكتاب الخامس: كفاحي – أدولف هتلر !

كتاب غني عن التعريف طبعاً ، ألفه الديكتاتور الألماني الأشهر في تاريخ البشرية أدولف هتلر وهو في السجن، ونُشر في العامين 1925 و 1926 .. وهو عبارة عن خليط مجنون من خطط هتلر الطموحة، وسياساته التوسعية ونظراته السياسية ، فضلاً عن سيرته الذاتية..

الكتاب كان عنوانه الأصلي الذي اختاره هتلر له هو: (أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والغباء والجبن)، إلا أن الناشر اقترح عليه تسميته (كفاحي) كعنوان أفضل للكتاب .. وهو ما كان ..

وقد اعترف الكثير من الساسة الأوروبيين أنهم كانوا في منتهى الحماقة والغباء لأنهم لم يقرؤا هذا الكتاب، أو لم يقرؤوه بالجدية اللازمة، لأنهم أدركوا فيما بعد أن الكتاب ببساطة كان يضم كل خطط هتلر ورؤيته السياسية والإستراتيجية، والتي نفذها حرفياً خلال الحرب العالمية الثانية !

زعامة تقترب من التأليه .. سُلطة مُطلقة .. إرادة ذاتية بمثابة قوانين للحزب الحاكم والدولة .. نظرة سياسية دكتاتورية شمولية كاملة .. عنصرية .. عرقية .. السيادة للأقوى .. حق القوة وليس قوة الحق!

هذه هي أفكار هتلر المجنونة التي وضعها على الورق في كتابه الشهير .. والتي نفذها على أرض الواقع بعدها بعدة سنوات..

والمحصلة: أكثر من 60 مليون قتيل في أعنف حرب شهدها التاريخ الإنساني .. أي حوالي 2.5 % من إجمالي تعداد السكان العالمي وقتها !

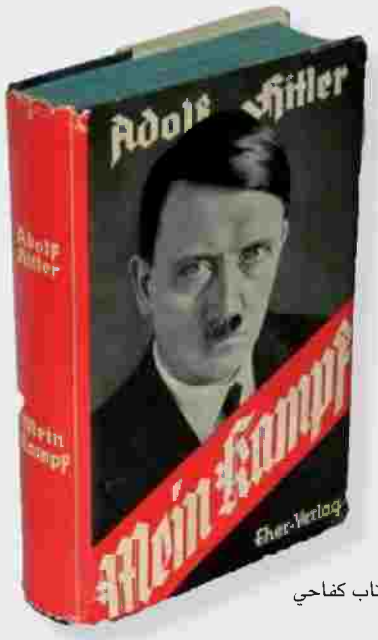

كتاب كفاحي

الكتاب السادس: ثروة الأمم – آدم سميث

كتاب حمل نواة الفكر الاقتصادي الرأسمالي العالمي، الذي استطاع تغيير النظريات الاقتصادية التقليدية إلى مفاهيم الاقتصاد الحر..

الكتاب يستحيل ألا يتعرف عليه أي مُهتم بعلم الاقتصاد، لأنه ببساطة شديد أبو الإقتصاد الحديث بالمعنى الحالي العصري، وأحد الأسس الرئيسية التي قام عليها الاقتصاد الليبرالي

العالمي المعاصر..

آدم سميث الاقتصادي الاسكتلندي البارز، الذي عاش في القرن الثامن عشر، اعتبر أن ثروة الأمم تُقاس بقدراتها الإنتاجية في الأساس الأول، وأن الإنتاجية – كمقياس للثروة – يُمكن مضاعفتها بتقسيم العمل – على عكس الموارد الطبيعية..

نظرية سميث تطرقت بشكل موسع إلى توزيع الثروات على المجتمع، ووسائل تنظيم التجارة وتقسيم العمل، فضلاً عن نظرياته في حرية السوق، والعلاقة بين السوق وتنظيم العمل ودور الدولة، وطرق دفع الحركة الاقتصادية وتشجيع الاستثمار، وغيرها..

ثروة الأمم .. كتاب قامت على أفكاره نظم اقتصادية كاملة، تطورت تدريجياً حتى وصلنا إلى معاني الاقتصاد العالمي والرأسمالية والاقتصاديات الحرة والعولمة، وغيرها من المفاهيم المترابطة ..

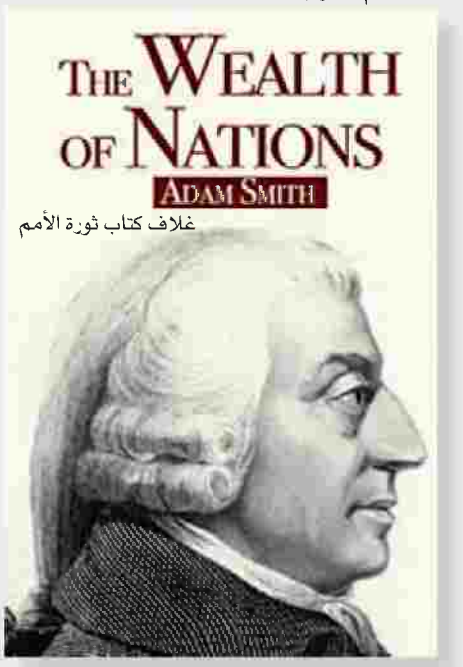

غلاف كتاب ثروة الأمم

الكتاب السابع: رأس المال – كارل ماركس

أحدث هذا الكتاب ثورة عقلية واقتصادية واجتماعية كبيرة جداً ، أدت لانشقاقات عقائدية وحروب باردة طالت نحو نصف قرن من الزمان .. وتحول اسم مؤلفه (كارل ماركس) إلى مذهب سياسي واجتماعي واقتصادي وديني هو (الماركسية)!

الكتاب يعرفه الكثيرون .. ولكن قليلون جداً هم من قرؤوه..

الكاتب الألماني العظيم، الذي عاش في القرن التاسع عشر، تناول في كتابه هذا العلاقة بين المنازعات الاجتماعية والإنتاج الرأسمالي، ورؤيته لمعنى التطور الصناعي للبلدان، وتحليل البضائع، والاقتصاديات السياسية لرأس المال، وقوى البيع والشراء، والعديد من المفاهيم السياسية والمجتمعية والدينية والاقتصادية..

يجب أن أقول أن الكتاب مُعقد جداً على إفهام الكثيرين، ويجب أن يكون لدى القارئ الصبر والحس النقدي والتحليلي الذي يؤهله لقراءة هذا التصورات..

الكتاب ضخم فعلاً ، ويتألف من 9 مجلدات ! ..

كتاب رأس المال

الكتاب الثامن: المقدمة – ابن خلدون

هذا الكتاب الذي مازال حتى يومنا هذا رمزاً لعبقرية الحضارة العربية الإسلامية، والذي يحمل في طياته تأصيلاً مباشراً لعلم الاجتماع أو السوسيولوجيا، وأتى فيها بما لم يستطع أحد من قبله أن يأتي بمثله..

ابن خلدون العالم العربي المُسلم، الذي كان – كأغلب العلماء العرب المسلمين – موسوعة علمية وثقافية متنقلة تسير على قدمين؛ فقد كان فلكياً واقتصادياً ومؤرخاً واستراتيجياً وعالماً للرياضيات وفيلسوفاً .. ولكنه اشتهر أكثر بكونه مُؤسس علم الاجتماع..

مُقدمة ابن خلدون جعلت الكثيرين ممن جاؤوا بعده يجدون صعوبة بالغة في الزيادة على ما وصل إليه في كتابه القيّم .. لهذا السبب – وغيره – يحتفي به العالم أجمع احتفاءً شديداً حتى يومنا هذا..

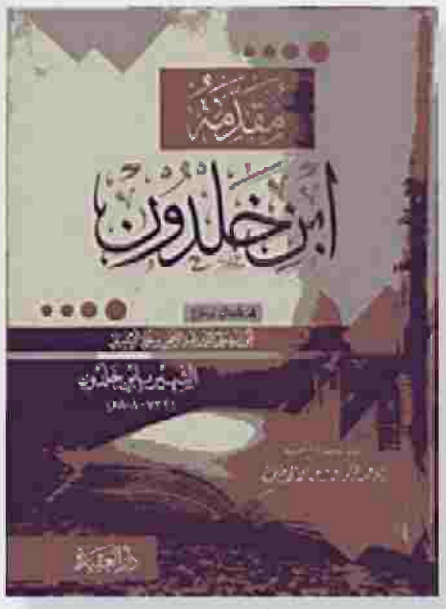

غلاف كتاب مقدمة ابن خلدون

الكتاب التاسع: تفسير الأحلام – سيجموند فرويد

الكتاب الذي يُعتبر التنظير العلمي الأساسي والأشهر في علم النفس، نظراً لشهرة ومكانة مؤلفه الطبيب سيجموند فرويد بين علماء عصره..

وضع فرويد في كتابه (تفسير الأحلام) العديد من النظريات النفسية، التي تُعد الآن مرجعاً رئيسياً لكل المشتغلين في الطب النفسي أو المجالات ذات الصلة بعلم النفس، والتي حاول من خلالها الوصول إلى تفسيرات علمية قاطعة لماهيّة الأحلام وكيفية تفسيرها نفسياً ..

الكتاب ملئ بالمُفردات العلمية النفسية المُعقدة التي تُساهم هي ذاتها في جلب كل الأمراض النفسية الممكنة إليك أثناء القراءة ! .. فضلاً عن كون الرجل مُقتنعاً تماماً أن (الجنس) هو السبب الرئيسي في كل المشاكل النفسية التي يُعانى منها الإنسان !

كتاب (تفسير الأحلام) لسيجموند فرويد .. كتاب أضاف الكثير جداً – بلا شك – لعلم النفس الإنساني، بشكل يجعله – عن جدارة – واحداً من أكثر الكُتب تأثيراً في تطور البشر ..

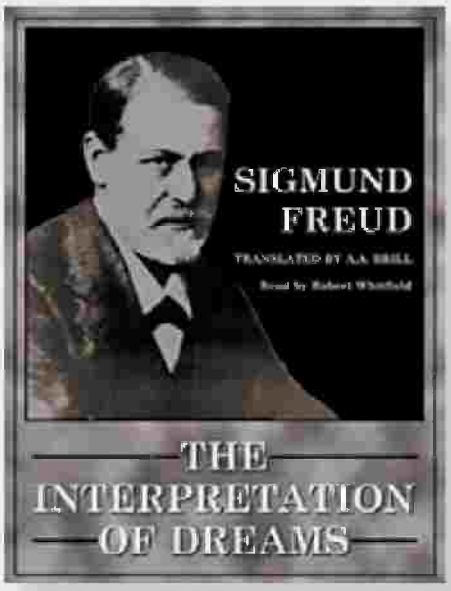

غلاف كتاب تفسير الأحلام

الكتاب العاشر: دورة الأفلاك السماوية – كوبرنيكوس

مثل هذا الكتاب بداية الانقلاب الكامل على النظريات الفلكية التقليدية، التي كانت سائدة في ذلك الوقت، بأن الأرض هي مركز الكون، وأن الأجرام السماوية بما فيها الشمس هي التي تدور حول الأرض..

كوبرنيكوس أحد أهم وأعظم العقول البشرية، التي ساهمت في إطلاق علم الفلك بمنظوره الحديث، عندما أثبت أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية، وان الأرض والكواكب الأخرى هي التي تدور حولها، وليس العكس..

اصطدم طبعاً كوبرنيكوس بطرحه هذا مع العقل الجمعي الرجعي الذي كان سائداً في أوروبا هذه الفترة من القرن السادس عشر، فضلاً عن الاتهامات بالزندقة والتكفير والتشكيك في المسيحية، وغيرها من الاتهامات التي كانت سائدة وقتئذ في أوروبا..

من قرأ الكتاب علّق عليه أنه متعة حقيقية عندما تجد عقلاً نشطاً ذكياً يحطم القيود التقليدية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ويُعمل عقله في موضوع كان يتعامل معه الجميع كأمر مُسلّم به تماماً ولا يقبل النقاش أو الشك..

كتاب دورة الأفلاك السماوية للفلكي العظيم كوبرنيكوس، يُعتبر هو المفتاح الرئيسي لعلم الفلك بمعناه الحديث بلا أدنى شك .. لذلك استحق طبعاً أن يكون من ضمن العشرة كتب التي أثرت على البشرية !

أي من هذه الكتب العشرة ترى إنها الأكثر تأثيراً في التاريخ الإنساني من وجهة نظرك؟

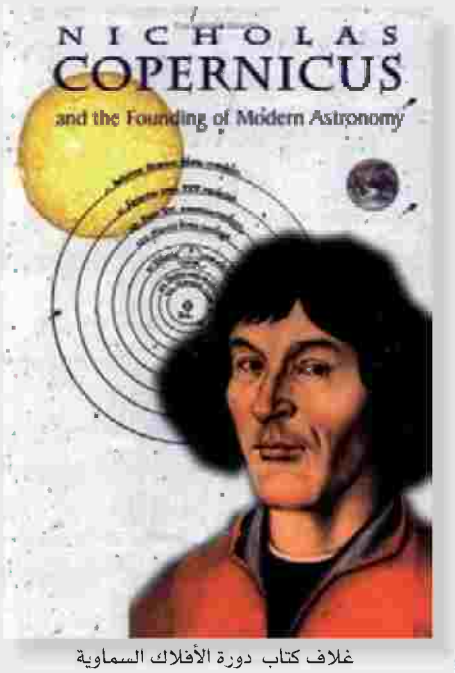

غلاف كتاب دورة الأفلاك السماوية

رأفة العرب باليهود خلال الحرب العالمية الثانية

محمد عيساوي

حين نقرأ اللائحة التي وضعتها مؤسسة (ياد فاشيم) الإسرائيلية التي تعنى بإحصاء (الصالحين بين الأمم) – أي الأشخاص الذين أنقذوا يهوداً من يد النازيين خلال الحرب العالمية الثانية– لا نعثر على أي اسم عربي أو مسلم من فرنسا أو المغرب العربي.

أكثر من ذلك، لا تزال صورة العرب والمسلمين في الغرب وإسرائيل خلال تلك المرحلة السوداء محصورةً في العلاقات التي ربطت هتلر بمفتي القدس آنذاك أمين الحسيني و«بفرقة الحماية» (SS) التي تألّف عديدها حصراً من المسلمين. ولتبديد هذا الجهل الفاضح بوقائع تلك المرحلة، وضع الصحفي الجزائري الفرنسي محمد عيساوي بحثاً مثيراً صدر حديثاً في كتاب عن دار نشر (غاليمار) الباريسية تحت عنوان (النجمة الصفراء والهلال).

وتجدر الإشارة بدايةً إلى أن هذا البحث تطلّب من عيساوي فترة عامين ونصف العام من الجهد الدؤوب قام خلالها بنبش وثائق وتتبّع آثار شهود وجمع شهادات خطّية وشفهية قبل خطّ كتابه الذي يُشكّل من دون شك مرجعاً فريداً بشأن هذا الموضوع ويتركّز خصوصاً على الدور الذي لعبه مسجد باريس وأئمّته في إنقاذ الكثير من اليهود من موت محتّم على يد النازيين.

وفي هذا السياق كان لقاء عيساوي مع المخرج السينمائي الجزائري دري بركاني الذي أخرج الفيلم الوثائقي (مسجد باريس.. مقاومة منسية) الذي يُشكّل شهادةً دامغة على دور هذا المسجد وعميده آنذاك سي قدور بن غبريت في إنقاذ العديد من اليهود عبر إيوائهم في أماكن سرّية في المسجد وتسليمهم أوراقا مزوّرة تثبت اعتناقهم الديانة الإسلامية، وذلك بشهادة اليهوديَيْن ألبر أسولين والمغني الشهير سليم هيلالي.

وفي السياق ذاته كان لقاء عيساوي باليهودي الفرنسي الشهير سيرج كلارسفيد (محامي أبناء اليهود المبعدين عن فرنسا خلال الحرب) الذي أقرّ له بأن أمه حصلت بدورها على أوراق مزوّرة تثبت أنها عربية مسلمة، من دون أن يحدّد الجهة التي منحتها هذه الأوراق.

مدونة وشهادات

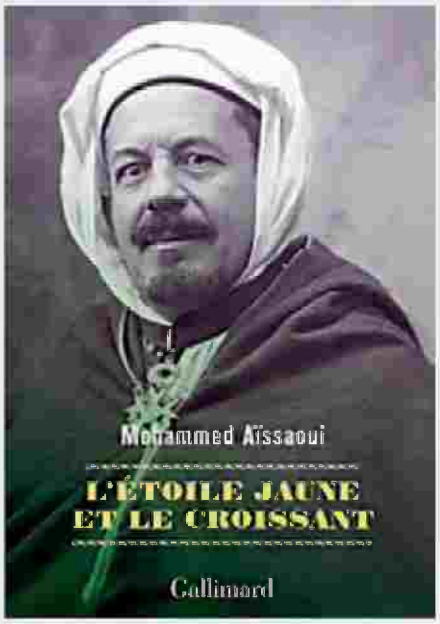

صورة غلاف الكتاب

أما في قسم الأرشيف لوزارة الخارجية الفرنسية، فقد عثر عيساوي على مدوّنة رسمية وجّهها المدير السياسي لهذه الوزارة إلى الجنرال فيغان الذي كان يحتل آنذاك منصب وزير الدفاع في حكومة فيشي، ويقول فيها «سلطات الاحتلال تشتبه في موظّفي مسجد باريس بمنح أفراد من العرق اليهودي شهادات تثبت أنهم من الطائفة الإسلامية. لقد تم إنذار الإمام، بشكل تهديدي، بالامتناع عن أي ممارسة من هذا النوع».

ومن الشهادات المهمة الأخرى، التي نقرؤها في بحث عيساوي الشيّق عن شهامة عميد مسجد باريس، شهادة الفرنسي ميشال تارديو التي أكد فيها أن أمه اليهودية أورو بوغانيم التي كانت تعمل ممرضة في مستشفى بوبيني أخبرته مراراً أن بن غبريت اتصل بها هاتفياً لإبلاغها بأن الألمان يدقّقون في أسماء موظفي المستشفى بحثاً عن اليهود ونصحها بالهروب فوراً.

وكذلك شهادة حمزة بن إدريس عثماني الذي وضع سيرة لبن غبريت أشار فيها إلى إنقاذ هذا الأخير عازفة بيانو يهودية تدعى جورجيت أستورغ عبر إيوائها في مسجد باريس خلال بضعة أيام ثم تسهيل عبورها إلى مدينة تولوز، وشهادة الفكاهي الفرنسي الشهير فيليب بوفار التي أكّد فيها دور بن غبريت الرئيسي في تحرير والده بالتبنّي، اليهودي جول لوزاتو، من قبضة الغيستابو.

ولأن بن غبريت لم يكن الشخص الوحيد الناشط في هذه المسألة داخل مسجد باريس،

يقدّم عيساوي شهادات على دور معاونَين له نشطاً في تسليم أوراق مزوّرة ليهود فرنسيين من أصل مغاربي، وساعدا الكثيرين منهم على الفرار إلى دول المغرب العربي، كالإمام الجزائري محمد بنزواو ومواطنه الإمام عبد القادر مصلي الذي انخرط في المقاومة الفرنسية ونشط في مدينة بوردو قبل أن يتم توقيفه على يد عناصر الغيستابو وسجنه في معسكر «فور دو ها» ثم إبعاده إلى معسكر (موتاوسن) فمعسكر (داخاو).

ولا يقتصر بحث عيساوي على سلوك بن غبريت ومعاونيه النبيل تجاه اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، بل يتناول أيضاً سلوك شخصيات ومجموعات عربية وأمازيغية كثيرة نشطت في هذا الاتجاه آنذاك.

ومن هؤلاء الجزائري علي زيتوني الذي اتهمته شرطة باريس بالانتماء إلى (كتيبة أفريقيا الشمالية) النازية وسجنته عام 1944 قبل أن يتبيّن أنه أنقذ عدداً كبيراً من اليهود عبر منحهم أوراقاً تثبت أنهم مسلمون بحكم عمله في أحد أقسام الشرطة في باريس، بشهادة المحاميَين اليهوديين رونيه هايو وبيناجيلا عيّاش.

هناك أيضا التونسي علي سكّات الذي أنقذ نحو ستين يهودياً تونسياً فرّوا من معسكر للعمل الإجباري، ومواطنه خالد عبد الوهاب الذي استقبل عائلتَين يهوديتين في معصرة الزيت التي كان يملكها، بشهادة المؤرّخ روبير ساتلوف.

أمين الحسيني

ولا ينسى عيساوي التوقف عند سلوك السلطان محمد الخامس في المغرب ومنصف باي في تونس اللذين رفضا الالتزام بقوانين حكومة فيشي التي حاولت عبثاً أن تفرض على يهود بلدَيهما وضع نجمة صفراء على ملابسهم وانتزاع ملكية متاجرهم.

وكما توقف عند نضال «المجموعة الأمازيغية» ضد النازيين في باريس وإصدارها بعد فترة وجيزة من انطلاق حملة الاعتقالات ضد اليهود بياناً بعنوان (مثل أطفالنا) قالت فيه: «البارحة، عند الفجر، تم توقيف جميع اليهود في باريس، أطفالاً نساءً وعجزة. إنهم في المنفى مثلنا. إنهم عمّال مثلنا. إنهم إخوتنا. أطفالهم مثل أطفالنا. إذا التقى أحدكم بواحد منهم، عليه إنقاذه. يا رجال وطننا، قلبكم كبير».

أما في ما يتعلّق بأمين الحسيني فيُذكّر عيساوي في نهاية بحثه أن سلطة الانتداب البريطاني على فلسطين التي كانت عليمة بعدائه لليهود هي التي عيّنته مفتياً للقدس بهدف إحداث فتنة بين العرب واليهود وتطبيق مبدأ (فرّق تسد).

ومع ذلك، لم يتبع هذا الرجل في مغامرته النازية سوى حفنة قليلة من العرب مقارنةً بعدد الأوروبيين المتعاونين الهائل. فوفقاً للأرقام التي يمنحنا إياها الباحث اللبناني جيلبر أشقر في كتابه المرجعي «العرب والمحرقة اليهودية» الذي يستشهد عيساوي به، لا يتجاوز عدد العرب الذين التحقوا بتنظيمات عسكرية نازية 6300، في حين بلغ عدد العرب الذين التحقوا بجيوش الحلفاء 259 ألفاً، بينهم 9000 فلسطيني.

سقوط غرناطة في (ظلال شجرة الرمان)

في روايته (ظلال شجرة الرمان) يتوقف المفكر البريطاني طارق علي أمام مشهد تاريخي عاصف ترك بصماته على مستقبل العالم في سنوات أعقبت سقوط غرناطة، ولكن المؤلف لا يلجأ إلى مقولات جاهزة، بل ينسج خيوطاً معقدة ومتداخلة لشبكة من العلاقات الاجتماعية والفلسفات والأديان في دراما أشبه بالتراجيديات الكلاسيكية.

وسقوط غرناطة عام 1492م، لم يكن تسليماً طوعياً لمدينة وإنما إنهاء لمرحلة وفتح أبواب الجحيم على المنتمين إليها من المسلمين واليهود معاً والاستيلاء على أملاكهم وتقسيمها بين الكنيسة الكاثوليكية والعرش «وتحريم ممارسة الشعائر الإسلامية أو التحدث بالعربية وتحويل غرناطة إلى محرقة خطرة».

وفي الاستعراض الدرامي لهذا الموقف لا يميل طارق علي إلى تصوير الأندلس كفردوس مفقود وإنما يرصد على لسان أبطاله ومن خلال سلوكهم ما يمكن اعتباره حتمية تاريخية جعلت النهاية غير مفاجئة، حيث خير المسلمون بين التحول إلى الكاثوليكية أو القتل، فاختار البعض أن يتحول، في حين لجأ آخرون للثورة المسلحة التي لا يكتب لهم فيها النصر.

وقبل الثورة والمواجهة المسلحة التي تنتهي بها الرواية أو بالتزامن معها حدد المنتصر هدفه وهو محو ذاكرة المهزوم. ففي المشهد الافتتاحي للرواية في نهاية عام 1499م يحرق نحو مليوني مخطوط (السجل العامر لثمانية قرون) وجمعت من مكتبات 12 قصراً و195 مكتبة عامة في

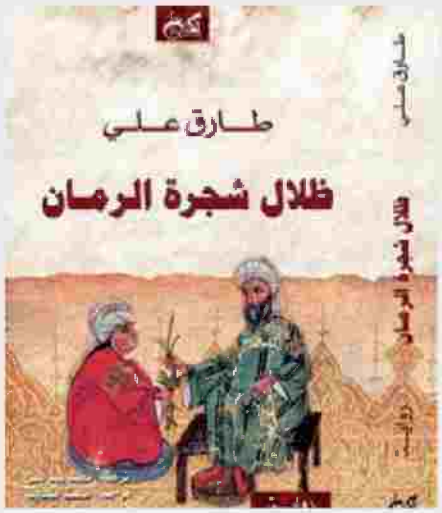

صورة غلاف الرواية

غرناطة بأمر من (راهب الشيطان) الأسقف خمينيث دي سيسنيروس الناطق بلسان الكنيسة والتاج معا، ولكن بضع مئات من الكتب نجت من المحرقة بحيلة من جنود كانوا يلقون المخطوطات الأثقل وزناً على عتبات أبواب مغلقة، فيتسلل رجل ملثم ويلتقطها ثم عبرت تلك المخطوطات إلى مدينة فاس بالمغرب.

وطارق علي – الذي ولد في باكستان عام 1943، وتسجل مقدمة الرواية أنه كان رئيس اتحاد طلاب جامعة البنجاب– درس الفلسفة والاقتصاد في لندن، وأصبح عام 1965 رئيس اتحاد طلاب جامعة أوكسفورد وتولى رئاسة تحرير عدة صحف ومجلات منها (اليسار الجديد).

وهو يعد من أبرز مناهضي العولمة ومعارضي النموذج الأميركي ومن مؤلفاته (باكستان حكم عسكري أم سلطة شعبية؟) (1970) و(الثورة من أعلى: الاتحاد السوفياتي إلى أين؟) (1988) و(صدام الأصوليات: الحملات الصليبية والجهاد والحداثة) (2002) إضافة إلى روايات أبرزها (خماسية الإسلام) التي يتناول فيها جوانب من تاريخ الحضارة الإسلامية.

وتقع الرواية في 320 صفحة متوسطة القطع وترجمها الكاتب المصري محمد عبد النبي وراجعها المترجم المصري طلعت الشايب ونشرت في القاهرة عن (الكتب خان للنشر والتوزيع) التي ستصدر تباعاً الأجزاء الأربعة الأخرى وهي (كتاب صلاح الدين) و(امرأة الحجر) و(سلطان في باليرمو) و(ليلة الفراشة الذهبية).

نهاية أسرة وأمة

وتدور أحداث (ظلال شجرة الرمان) في قرية (هذيل) القريبة من غرناطة، والتي أسستها عشيرة الهذيل في القرن العاشر الميلادي وكان

المؤسس ابن فريد يجمع بين شجاعة الأسد ومكر الثعلب، ولم يبق منه بعد خمسة قرون إلا سيف ورثه حفيده عمر بن عبد الله رب الأسرة التي ستشهد نهاية غرناطة.

وتضم الأسرة مربيته ومرضعته العجوز الصارمة وزوجته زبيدة وولديه زهير ويزيد وابنتيه كلثوم وهند إضافة إلى أخته زهرة والعم ابن هشام والعم ميغيل الذي تحول ظاهريا وأصبح أسقفاً.

وتتتبع الرواية تداعيات سقوط غرناطة من خلال سردية طويلة لتلك الأسرة التي تحاول كغيرها البقاء على قيد الحياة والهروب من التصفية بعد انهيار عالمهم ونشوء عالم آخر معاد لا يعرف التسامح. وكانت شجرة الرمان بظلالها الوارفة التي شهدت اجتماعات الأسرة ولقاءات العشاق والمحبين فيها هي نفسها التي شهدت على نهايتها.

ولا يميل الروائي الباكستاني الأصل إلى تصنيف الناس إلى أشرار وأخيار، ففي الرواية يتصدى لعنصرية الأسقف خمينيث دي سيسنيروس رجل عاقل هو الكونت دون أنيجيو لوبيز دي مندوثا القائد العام لغرناطة وعمدتها. وتبدو أفكاره قريبة من آراء خلفه أورتادو دي مندوثا (1506م-1575م) الشاعر والمحارب والدبلوماسي الذي سجل شهادته على مواجهات بين الإسبان والأقلية المسلمة التي كانت تحارب بأسلحة بدائية وتنتظر عونا من الأتراك والمغرب والجزائر في كتاب (حرب غرناطة) بين عامي 1568م و1570م ويوبخ دي مندوثا دي سيسنيروس قائلاً إن المسلمين لم يحرقوا معابد اليهود أو الكنائس ليقيموا مكانها مساجدهم، وإن سفك الدماء سيؤدي إلى مقاومة المسلمين «وسوف يسفك المزيد من الدم دمهم ودمنا، محكمة التفتيش تجمع ثروة فاحشة من أجل الكنيسة. كان إحراق كتبهم عاراً كبيراً، لطخة لوثت شرفنا»، مشدداً على أن المخطوطات العلمية العربية لا نظير لها.

وتوجه الرواية أصابع الاتهام إلى المسلمين أنفسهم عن ما انتهت إليه أحوالهم إذ يقول (وجيد الزنديق) في الرواية «ندير أعناقنا على الدوام نحو الماضي بدلاً من التطلع للمستقبل، فشلنا في ترسيخ قواعد سياسية قادرة على حماية جميع مواطنينا ضد نزوات الحكام، لم نستطع أن نتلمس الطريق نحو الاستقرار وحكم ينهض على العقل».

ظروف النكبة وحقائقها في كتاب مرجعي

وليد خالدي

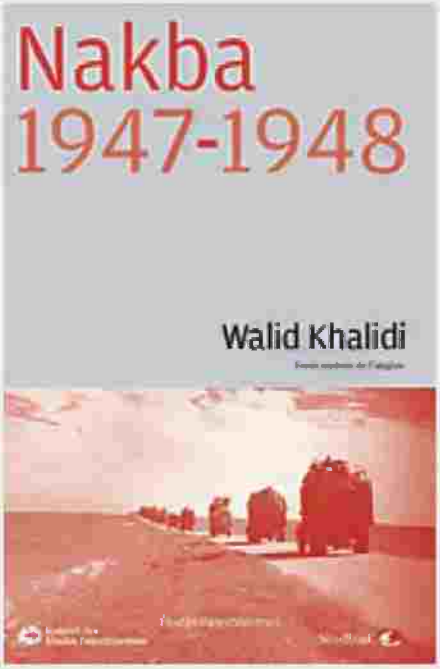

غلاف الكتاب

يشكل كتاب (نكبة) للمؤرخ الفلسطيني وليد خالدي خير مساهمة في تأريخ الأحداث المأساوية التي حصلت في فلسطين بين عامي 1947 و1948 وكانت نتيجتها طرد نحو 800 ألف فلسطيني من وطنهم على يد الصهاينة ضمن ما يسميه الفلسطينيون النكبة.

ويتألف الكتاب – الذي صدر عن دار نشر (أكت سود) الباريسية بالتعاون مع معهد الدراسات الفلسطينية في بيروت– من ستة مقالات مطولة وموثقة نشرت للمؤرخ بين عامي 1959 و1993.

لماذا رحل الفلسطينيون؟

ففي المقال الأول الذي حمل هذا العنوان، ينقضّ خالدي على الأسطورة التي روّج لها الإسرائيليون في الغرب للتبرّؤ من مسؤولية اللاجئين الفلسطينيين، ومفادها أن هؤلاء نزحوا إلى الدول العربية المجاورة إثر أوامر تلقّوها من الحكّام العرب بواسطة الراديو تحضّهم على الرحيل مؤقّتا بهدف فتح الطريق أمام الجيوش العربية النظامية.

فبعد بحث وتدقيق يتبيّن لخالدي عدم وجود أي دليل يُثبت الادعاءات الإسرائيلية، لا في المصادر الصهيونية لعام 1948 علماً بأنه كان من البديهي العثور فيها على أثر لهذه الأوامر، ولا في أرشيف جامعة الدول العربية الذي يتضمّن جميع التصريحات الصادرة عنها خلال تلك المرحلة، ولا في أبرز الصحف العربية، ولا سيما أنه من المستحيل إهمال هذه الأخيرة لأوامر بهذه الخطورة وعدم الإشارة إليها ولو بسطرٍ واحد!

بل إن كل ما وجده خالدي في هذه الصحف هو قرار اللجان المركزية التي تشكّلت آنذاك في لبنان وسوريا ومصر بعدم منح إقامات للفلسطينيين الذين لجؤوا إلى هذه الدول والقادرين على حمل السلاح، وإرسالهم إلى الجبهة الفلسطينية.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى نشرات وبرامج الإذاعات العربية عام 1948 التي استمع المؤرّخ إليها يوماً بيوم ولم يعثر على أي أثر لأوامر من هذا النوع بل على القرار المذكور أعلاه وعلى دعوات من (المجلس العربي الأعلى) للفلسطينيين الموجودين في فلسطين، من موظّفين وعناصر شرطة ورجال قادرين على حمل السلاح، إلى البقاء في وطنهم ومتابعة عملهم.

سقوط حيفا

كان هذا عنوان المقال الثاني الذي يبيّن فيه خالدي أن هجوم منظمة الهاغاناه الصهيونية على الأحياء العربية من مدينة حيفا في 21 و22 أبريل/نيسان 1948 شكل جزءاً من هجوم عسكري شامل هدفه إحلال دولة يهودية في فلسطين بقوة السلاح، وأن هذا الهجوم تم تنسيقه بشكل وثيق مع الجنرال البريطاني ستوكويل الذي مارس أيضاً ضغوطاً كبيرة على المفاوضين الفلسطينيين كي يقبلوا الاستسلام بالشروط التي فرضتها الهاغاناه.

أما النزوح الكثيف لسكان المدن العربية فلا علاقة له بأي أوامر وُجّهت إليهم من قبل الحُكّام العرب بل سببه الإرهاب والحرب النفسية اللذين مارستهما المنظمة الصهيونية المذكورة خلال هجومها.

في المقال الثالث يكشف خالدي تفاصيل (مخطّط داليه) الصهيوني كما نُشر في كتاب (تاريخ الهاغانا) «المكتبة الصهيونية بتل أبيب» الذي يتجلّى فيه بما لا يقبل الشك أن العمليات العسكرية المتلاحقة التي قام بها الصهاينة عام 1948 في مختلف أنحاء فلسطين لم تترابط مصادفةً كما ادّعى المؤرّخون الإسرائيليون فيما بعد، بل تم تنفيذها وفقاً لمشروعٍ واضح وشامل غايته طرد الفلسطينيين من بيوتهم ومصادرة أراضيهم من أجل منحها لمئات آلاف اليهود

الذين كان مقرراً استقبالهم في الدولة العبرية الجديدة.

وفي هذا السياق تم تفريغ 369 قرية فلسطينية من سكانها بالقوة والترهيب قبل أن يتم تدمير هذه القرى كليًا بهدف منع سكانها من العودة إليها.

قرار التقسيم

وفي المقال الرابع يتفحّص خالدي قرار الأمم المتحدة الذي اتخذ عام 1947 وأدّى إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية، محلّلاً مضمونه على ضوء الوقائع الديمغرافية والعقارية في فلسطين آنذاك وكاشفًا نتائجه المأساوية والجائرة بحق الشعب الفلسطيني.

فعلى خلاف ادّعاء الأمم المتحدة بأن مشروع التقسيم هو صيغة تسوية شرعية وأخلاقية وعادلة ومتوازنة، يبيّن خالدي أولا عدم شرعية هذه الصيغة نظراً إلى عدم استجابة الأمم المتحدة للمطالب الشرعية التي تقدّمت البعثات العربية بها.

ويظهر القرار الأممي عدم أخلاقية هذه الصيغة نظراً إلى الوثائق العديدة التي تشهد على الضغوط وعمليات التهويل التي مارستها واشنطن على الدول الصغيرة كي تصوّت لصالح القرار، قبل أن يفضح جور هذه الصيغة وعدم توازنها من منطلق أن قرار التقسيم منح اليهود -ومعظمهم من المهاجرين حديثاً إلى فلسطين- 55 % من الأراضي الفلسطينية، علمًا بأنهم كانوا يشكّلون أقل من ثلث سكان فلسطين ويملكون أقل من 7 % من أراضيها.

وبينما يرصد خالدي مقاله الخامس لفضح انتقادات المؤرّخ الإسرائيلي بيني موريس غير المبنية والمُغرضة لكتابه (قبل شتاتهم)، يتناول في مقاله السادس سذاجة الحُكّام العرب خلال نهاية مرحلة الانتداب البريطاني على فلسطين وثقتهم غير المبرّرة بالبريطانيين والأميركيين، وانقسامهم وعدم جاهزيّتهم العسكرية، حتى بعد قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين، إلى جانب صراع العواصم العربية الكبرى من أجل السيطرة على الجامعة العربية.

أميركا والإبادات الجنسية

منير العكش

عرض/ زياد منى

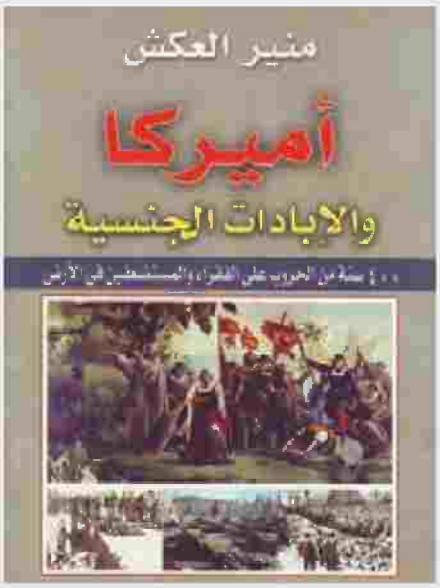

غلاف الكتاب

مؤلف هذا الكتاب أستاذ اللسانيات واللغات الحديثة ومدير البرنامج العربي في جامعة سفك ببوسطن بالولايات المتحدة الأميركية.

له 24 كتاباً ألفه أو ترجمه أو حرره، منها أربع مجموعات شعرية للراحل محمود درويش مترجمة إلى الإنجليزية، إضافة إلى تأليفه كتبا عديدة بالعربية عن الولايات المتحدة الأمريكية، من منظور نقدي. في عام 1983 حصل على وسام أوروبا، قدمه له ماريو زكاري نائب رئيس البرلمان الأوروبي تقديراً لجهوده في (حوار الحضارات)، بما يعني أنه شخصية علمية وفكرية تحظى باحترام عبر الحضارات، علماً بأنه يعرف نفسه بأنه سوري المولد فلسطيني بالاختيار.

هو أيضاً رئيس تحرير مجلة (جسور) jusoor الإنجليزية، ومؤسسها أيضاً، والتي يصدرها بالتعاون مع جامعة سيراكوس الأمريكية.

صفحات المحتوى

عندما اقتنيت هذا الكتاب لقراءته، عنوانه دفعني للظن بأني سأقرأ بياناً دعائياً سياسياً، وهو، وبكل صراحة ما أخر اقتنائي له ودفعني، المرة تلو الأخرى، لتجنب المزيد من ارتفاع في ضغط الدم والإحباط، مع أني كنت أتابع كتابات الدكتور منير العكش باهتمام حقيقي، حيثما توفرت الفرصة.

لكنني اكتشفت بعدما عاينت الكتاب، للتأكد من منحاه العلمي، بأني كنتُ مخطئاً. تقويمي لأي مؤلف، أرى أنه يتناول موضوعاً يمكنني الادعاء بأني مطلع عليه، يبدأ بالعنوان حيث كثيراً ما أتجنب اقتناء أي مؤلف محتواه ذو طابع يحمل الإثارة.

بعدها أقرأ صفحة المحتوى، والمقدمة وأقفز بعد ذلك إلى قراءة الاستنتاجات. فإن تبين لي توافر التناسق العلمي بين المكونات الثلاث، أبدأ بالقراءة، متجاهلاً العنوان (الإثاري) منطلقاً من تجربتي مع ناشر غيّر من عنوان مؤلف لي، خلافاً للعقد، ووضع بدلاً منه عنواناً إثارياً جر عليّ غضب نقاد وزملاء، ونقمتهم، ظناً منهم أني المسؤول عن ذلك.

هذا توضيح للقارئ غير المطلع على بعض خفايا النشر في عالمنا، ولا علاقة له بناشر الكتاب موضوع هذه القراءة، ولذا وجب التنويه.

كنت من قبل قرأت كتباً علمية تتعامل نقدياً مع تاريخ الولايات المتحدة الأميركية كتبها مفكرون أوروبيون وأميركيون وفي مقدمتهم المؤرخ الأميركي هَوَرَد زِن صاحب كتاب (التاريخ الشعبي للولايات المتحدة الأميركية/APeople›s History of the United States) الذي رحل عنا أخيراً، إضافة إلى كتاب مؤرخ تاريخ الكنيسة الأول عالمياً الألماني كارلهاينس دشنر صاحب كتاب (المولوخ – إله الشر. تاريخ نقدي للولايات المتحدة الأميركية) فقلت لنفسي: هل ثمة من جديد في تاريخ تلك البلاد/الدولة لم نقرأه بعد.

أكثر ما أثار دهشتي في المؤلف ودفعني لقراءته بتركيز إشارة الكاتب في المقدمة إلى معلومات رسمية عن اقتراح برنامج حكومي أميركي في وثيقة وضعها هنري كيسنغر عام 1974 لقطع دابر نسل 13 دولة بينها مصر العربية، ضمن فترة ربع قرن. وتأكيده أن هذه السياسة متبعة إلى الآن، في عهد الرئيس الأسود البشرة، وإن تحت مسميات محايدة ذات مضمون إنساني.

التخلص من النسل

موضوع الكتاب إذن هو التخلص من نسل أمم ترى المؤسسة التي تحكم الولايات المتحدة أنها تشكل عبئاً على برامجها. كنت سمعت عن هذه الوثيقة السرية عندما أفرج عنها، لكنني كنتُ منشغلاً وقتها في عالم آخر. ومعنى ذلك أيضاً أن محاربة الفقر والجهل تتم بالتخلص من الفقراء والمهمشين والمستضعفين.

المؤلف اختار الإشارة إلى هذه الوثيقة مدخلاً للخوض في تاريخ نشأة عقدة التفوق

الأنغلوسكسوني على بقية مخلوقات الأرض، فتبين له، وعن حق، أن أصولها تكمن في التطرف الديني البروتستانتي، الذي يعد نفسه الاستثناء وخليفة الله على الأرض (ينقل المؤلف عن ممثلي هذا المنحى العنصري قناعتهم، بل إيمانهم بأن الولايات المتحدة يحدها شمالاً القطب الشمالي، والقطب الجنوبي جنوباً، أما حدودها الشرقية فتبدأ بالإصحاح الأول من سفر التكوين، وحدودها الغربية يوم القيامة). أي إنها مملكة الرب على الأرض وهي وريثته في هذا العالم، ثقافياً واقتصادياً.

لا شك في أن أي إنسان عاقل سينظر إلى هكذا فكر بابتسامة على «هبل» أصحابه، لكن عندما يعلم المرء اتكاء هذه الأفكار والنظريات على مراجع عن الموضوع، كثيرة، أشار إليها الكاتب ضمن المؤلف وفي قائمة المراجع، لم يكتبها مجذوبون مصابون بجنون العظمة، وإنما علماء خريجو جامعات يشكلون مؤسسة قائمة بذاتها ترعاها إدارة المؤسسة الحاكمة في تلك البلاد وجامعات منها جامعتا واشنطن وجون هبكنز اللتان تبنيتا وثيقة هنري كيسنغر الموما إليها أعلاه، فلا بد من أن يصاب بالهلع، لا بل بالرعب، وهذه الصفة (كتاب رعب) التي أطلقها على هذا الكتاب المهم فعلاً، لأنه يمس حياة كل منا في ديار العرب والإسلام أيضًا، لكنه يمس غيرنا من الشعوب أيضاً.

الرعب يتضاعف عندما نعلم مدى القوة العسكرية التي تملكها الإدارة الأمريكية هذا يذكرني بقول معلق سوفياتي في ثمانينيات القرن الماضي: القدرات العسكرية (Fire Power) للولايات المتحدة لا تخيفنا. ما يخيفنا حقاً قدراتها العقلية (Brain Power).

المؤلف عاد إلى جذور فكرة التفوق العنصري فعثر عليه في البدايات، في وهم التحدر من إسرائيل التوراة، وبالتالي وهم حق امتلاك الأرض وما عليها. فغزو أوروبا الغرب، عنى للأغلبية في ذلك الوقت، تماه مع (خروج العبرانيين) إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، كما تقول التوراة، وهذا ما يشرح تكرر ورود إطلاق المهاجرين الجدد أسماء مثل (فلسطين، أريحا، دمشق، لبنان. . . إلخ) على مستقراتهم الجديدة في (أميركا) التي قطنها وقت الغزو الأوروبي أكثر من مئة مليون هندري (الهنود الحمر) فأبادهم الغزاة القادمون من الشرق، وفق برامج وخطط، وليس بالصدفة، كما يثبت الكاتب، اعتماداً على مؤلفات من شارك في أعمال الإبادة المروعة تلك، والتي شارك في بعضها أشخاص صاروا رؤساء على تلك الدولة المتشكلة حديثاً.

يلاحظ القارئ أن نصف صفحات المؤلف تحوي الهوامش وقائمة المراجع وكلها صادرة في الغرب، ما يمنح الكتاب صفة علمية بامتياز، مع أن المؤلف أنهاه بملحق محتواه سياسي تماماً، ورغم أنه استخدم في بعض الأحيان أسلوباً أو تعبيرات تهكمية.

والمرء يعثر على جذور وَهَم تفوق العرق الأنغلوسكوني في أصل اسم إنجلترا (England)، الذي يعني، وفق قواميس الاشتقاق الإنجليزية (أرض الملائكة/ Angels Land)، وثمة كتب كثيرة صدرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تؤكد ! تحدر الإنجليز من عبرانيي التوراة، تماماً كما تؤكد وَهَم الدانماركيين بأنهم يتحدرون من سبط دان التوراتي الخرافي، ولذا وجب التوجه غرباً (لكن هذا عكس الفهم التقليدي لجغرافية الخروج التوراتي).

عقدة التفوق تعني، تطبيقياً، حق التحكم بمصير الشعوب الأخرى والتخلص من أي معوق لذلك. هذه الأفكار العنصرية نشأت ليس حديثاً، وإنما نجدها في مؤلفات تدعي العلمية تعود للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومن المثير للاشمئزاز أيضاً النظريات التي تدعي العلمية بخصوص التكاثر السكاني وكيفية التغلب على الصعوبات الناتجة منه والمرافقة له، ذات منبع ديني ومنها نظرية مالتوس الذي يرى أن الحروب والأوبئة نعم لهية لأنها تقضي على (فائض) السكان في العالم.

وهنا ترد نظريات (الداروينية الاجتماعية) = (البقاء للأفضل)، حيث صرحت مرغريت سانغر إحدى نجومها بالقول: أرحم ما تفعله الأسرة الكبيرة لواحد من أطفالها أن تقتله انطلاقًا من مبدأ (حق التضحية بالآخر).

وانطلاقاً من هذه الفرضيات اللاإنسانية، التطبيقية في السياسة، يرى المؤلف، ككثير من نقاد هذه الاتجاهات العنصرية المخيفة، أن هتلر، صاحب المحرقة، ما هو إلا تلميذ محرقة أميركا، حيث طبق ما قال به الآباء المؤسسون للفكر العنصري وتفوق نسل بشري على آخر (يوجيني/ Eugenics = علم تحسين النسل)، لكنه قرر في نهاية المطاف أن العنصر الآري يتفوق على غيره.

المؤلف، كما العديد من العلماء يتمسكون بصحة استخدام مصطلح المحرقة للإشارة إلى إبادة أكثر من مئة مليون هندري، رغم عنف معارضة الصهاينة المتمسكين بفرادية محرقة هتلر.

محرقة النازية

وهنا ينوه الكاتب إلى أن محرقة النازية قضت على (غير اليهود) أضعاف الستة ملايين يهودي المفترض أنهم قضوا فيها، حيث أبادت نحو عشرين مليون سلافي (شعوب الاتحاد السوفياتي سابقاً) عدا عن قتلها نحو نصف مليون سندي وروما (الغجر)... إلخ.

ومن الأمور غير الطريفة إطلاقاً في مقام الحديث عن العنصر الآري الموجود في العقول المريضة فقط، ما يدعى عن لون بشرتهم الأبيض وزرق عيونهم وشقر شعورهم التي هي صفات الشعوب السلافية. العنصر الآري، إذا صح الكلام في هذا هم حمر الشعر، ذوو بشرة لونها يميل للحمرة مع كثير من النمش، ولون عيون داكن.

من الأمور المحزنة التي ينوه إليها المؤلف تورط بعض العاملين في المجال الفني في الترويج لأبطال وهميين كل ما عرف عنهم قتلهم آلاف الهنادرة بسلخ جلودهم وحرقهم. . . إلخ، ومنهم سدني بولاك مخرج فيلم (جرميا جُنسن) الذي عرف عنه أكل أكباد الهنادرة الذين قتلهم، مع أنه ينفي ذلك، علمًا بأن الممثل والمخرج الشهير رُبرت ردفرد أدى دور البطولة فيه.

الكتاب، رغم أنه مكثف إلى حد كبير، هو مدخل مهم لفهم كثير من منابع سياسات التفوق التي يمارسها الغرب، ليس تجاه الآخر فقط، وإنما تجاه الغير هم ضحايا نظام اقتصادي قائم على تحصيل الربح، أياً كانت الوسائل، تماماً كما بدأ هتلر بتطبيق النظريات العنصرية على الآخر، غير الآري، ثم انتقل، نطقياً، إلى تمييز الآري الصالح من الآري الطالح.

ليت المؤلف يجد الوقت لإعادة كتابة مؤلفه هذا، بالتفاصيل المطلوبة، آخذين في الاعتبار عدم توافر هكذا مراجع مهمة في بلادنا وبلغتنا.

كيف خسرت إسرائيل؟

للصحفي اليهودي بن كرامر

عرض/ بدر محمد بدر

هل خسرت إسرائيل؟ وماذا خسرت بالضبط؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى خسارتها؟ وكيف يمكن علاج هذه الخسارة؟ هذا ما يتحدث عنه الكتاب، الذي نعرض له في هذه المساحة، عبر فصوله الأربعة التي تطرح أربعة أسئلة: لماذا نهتم بإسرائيل؟ ولماذا لا يكون للفلسطينيين دولة؟ وما المقصود بدولة يهودية؟ ثم لماذا لم يتحقق السلام؟

ومؤلف الكتاب (بن كرامر) هو صحفي يهودي أميركي الجنسية، نشأ في مدينة روشستر بنيويورك، وعمل مراسلاً لعدد من الصحف الأميركية في منطقة الشرق الأوسط، عاين من خلالها الكثير من الأحداث والمواقف والآراء على الجانبين.

ويلخص المترجم في البداية وجهة نظر المؤلف فيقول: إن إسرائيل خسرت بالفعل قضيتها، وخسرت تعاطف الرأي العام العالمي الذي كان يقف إلى جانبها في السابق، وبخاصة الولايات المتحدة وأوروبا، ولم تراع التطورات المحلية والعالمية.

خسرت قضيتها التي أوهمت العالم بعدالتها من خلال الدعاية الصهيونية، ورحلات الترويج والتفسير والتبرك بالأراضي المقدسة، التي كانت تنظمها لمناصريها السذج في أوروبا وأميركا، قبل أن تصبح إسرائيل دولة محتلة لأراضي الغير بالقوة في حرب الأيام الستة، حيث احتلت أراضي سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة.

وخسرت قضيتها أيضاً عند ما بدأت سياسة هدم البيوت وضم الأراضي والاغتيالات والتمييز العنصري، وأصبحت تباهي بذلك على نحو علني، وخسرت قضيتها لأنها تريد أن تحصل على كل شيء، ولا ترغب في التخلي عن شيء، إنها تريد الأرض كما تريد السلام الذي لا تملكه، إنها دولة تعيش على شيئين: الوهم بأنها الضحية، والصراع في المنطقة.

سر الاهتمام

ويتساءل المؤلف في الفصل الأول: لماذا نهتم بـ(إسرائيل)؟ مع أنها ذلك الشريط الرفيع من الأراضي على شاطئ شرق البحر المتوسط،

غلاف الكتاب

وفي بعض مناطقها لا يزيد عرضها على عشرة أميال، وبإمكانك قطعها بالسيارة من شمالها إلى جنوبها في نصف يوم، وهي أيضاً ليست بالمكان الثري ولا بالدولة العريقة، وهي أيضاً بلا تأثير سياسي، ولم يكن لها ناقة ولا جمل فيما سماه (بوش) الأب: النظام العالمي الجديد، وفي الأمم المتحدة على سبيل المثال لا يمكنك الخروج عن المألوف للحصول على دعم إسرائيل، إلا إذا كنت تحتاج إلى وقوف الأغلبية الساحقة من دول العالم الثالث ضد قرارك.

وعن يهود الولايات المتحدة يقول المؤلف: إن قدرتهم التصويتية كانت 3 %، انخفضت إلى 2 % فقط، وهم أقل التجمعات في أميركا تماسكاً، وأطفال اليهود اليوم في حالة يمكن أن نطلق عليها: لا مبالاة، ومن زعموا أن (بوش) الابن قد شن الحرب على العراق خضوعاً لرغبة إسرائيل، قد فشلوا في ملاحظة أن منظمي المظاهرات الكبيرة المناهضة للحرب كانوا أيضًا من اليهود.

اليمين المسيحي

ويشير بن كرامر إلى أن اليمين الأميركي المسيحي يؤمن بأن اليهود يجب أن ينالوا الأراضي المقدسة، في المقام الأول لأن الكتاب المقدس ذكر ذلك، وذكر أيضاً أن المجيء الثاني للمسيح يتطلب (تجمع) اليهود مرة أخرى على أرض صهيون، الأمر الذي يؤدي إلى نشوب معركة (أرمجدون)، التي تؤدي إلى عودة المسيح (عليه السلام)، كما أن هناك التقاءً سياسياً للأفكار، يعود إلى الأيام التي رأى فيها اليمين المسيحي في اليهود الحصن الحصين للقيم اليهودية المسيحية، الشجاعة المضادة للسوفيات (ومؤخراً المضادة للإسلام).

ومن المثير للدهشة -كما يقول المؤلف- أن هذا السبب الغامض الأخير هو الأقرب إلى الإجابة عن سؤال: لماذا نهتم بإسرائيل؟ ومن هذا المنطلق لا توجد مصلحة منطقية للولايات المتحدة من الناحية السياسية العملية لدعم إسرائيل، سواء على المستوى الدولي أو على مستوى الحملات الانتخابية داخل أميركا، فلا يوجد لوبي أو جماعة في الولايات المتحدة قادرة على الضغط على الحكومة، لجعل إسرائيل المتلقي رقم واحد للمعونة الأميركية (ثلاثة مليارات دولار كل عام، بالإضافة إلى مليارين ضمانات قروض، قبل أن نبدأ في إضافة المعونة العسكرية الخاصة، والمعاملات التجارية الخاصة، وغيرها من الصفقات السرية).

دولة فلسطين

ويطرح المؤلف في الفصل الثاني تساؤلاً مفاده: لماذا لا يكون لدى الفلسطينيين دولة؟ ويجيب بأن الفلسطينيين لم يتعلموا من اليهود كيفية التحكم في روايتهم القومية، واستخدامها بالتالي لتحقيق أهدافهم، ونتيجة لذلك فإننا ببساطة لا نعرف (كأميركان) قصتهم، وهو ما يعترف به كثير من الفلسطينيين.

ويتحدث الكتاب عن سياسة (الإغلاق) التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي لمناطق في الضفة الغربية، لافتاً إلى أن شعباً عربياً متعلماً ومثقفاً يزيد تعداده على ثلاثة ملايين نسمة يتعرض للإذلال بشكل دائم، ومن الناحية الاقتصادية يجري دفعهم بشكل ثابت وخطة واضحة، إلى العيش في ظل عصر ما قبل الصناعة، وأي جزء من أراضيهم يرغب فيه محتلوهم من الممكن أن يؤخذ منهم في أي وقت لأغراض عسكرية أو لإقامة مستوطنات أو لإنشاء نطاق أمني أو طريق أو حتى سياج.

وطوال معظم فترات الاحتلال لم يحظ أي شيء بناه الفلسطينيون بالصفة القانونية في المحاكم الإسرائيلية، ولذلك لا شيء يبنى من أجل الخير، والفلسطينيون شعب أعزل لا يملك قوة عسكرية تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم. لا مدرعات ولا مدفعية ولا سفن حربية ولا طائرات، وذلك في مواجهة يومية ضد جيش من أفضل جيوش العالم، علاوة على ذلك فإن هذا الجيش الذي يواجهونه يخدم سياسة مصممة لتعويق وتنغيص الحياة المدنية اليومية، التي تمثل أبسط حقوق وواجبات الوجود الإنساني.

ويقول المؤلف: عندما تسأل الفلسطينيين عن السبب في أنهم آخر شعب في العالم ستكون له دولة، فإن الإجابة تتلخص في كلمة واحدة: إسرائيل، وترد: ولكن القرقيز والطاجيك والأوزبك والتركمان والجورجيين لكل منهم دولة الآن، وكانت أمامهم مشكلة صغيرة مكونة من كلمة واحدة: روسيا، ولكنهم نجحوا في النهاية، حتى الأكراد تعيسو الحظ ربما تكون لهم دولة قبل الفلسطينيين، فلماذا؟ هل كان هناك سبب لاعتقاد العالم بأنه من الممكن وضع اليهود في فلسطين بدلاً من العرب الموجودين هناك؟ ولماذا تكون الـ22 % الأخيرة من فلسطين (يقصد الضفة الغربية وغزة) هي محل إقامة أطول احتلال بالقوة في التاريخ الحديث؟

يهودية الدولة

ويناقش الفصل الثالث موضوع يهودية الدولة، حيث يرى المؤلف أن هذه المشكلة بدأت في الظهور مع أول اجتماعات للكنيست في عهد بن غوريون، لكن كثيراً من مؤسسي «إسرائيل» كانوا ملحدين ولا يرغبون في تعكير صفو جنتهم الفاضلة الحديثة من خزعبلات الحاخامات، وكان هناك منذ البداية مجتمعان من اليهود في إسرائيل، أحدهما مجتمع المتشددين الأرثوذكس، والآخر يسمح برؤى متعددة للعقيدة، لكنه لا يرغب في فعل أي شيء تجاه المتشددين، والعداوة بينهما كانت متبادلة بالطبع، فالحاخامات لا يكفون عن اتهام قادة المجتمع العلماني في إسرائيل بأنهم أعداء ألداء لليهود واليهودية، والمجتمع العلماني يهاجم المتشددين أيضاً.

ويشير الكتاب إلى أن إسرائيل لديها مشكلة، وهي ليست مشكلة هينة ولكنها أزمة كبرى، وحينما يجرؤ الإسرائيليون على الحديث عنها فإنهم يطلقون عليها «القنبلة الزمنية»، وذلك عند ما تجيء اللحظة التي يرى فيها اليهود العرب، وقد اندفعوا نحوهم حينما يصبحون أغلبية في هذه الأرض.

البعض يقول إن ذلك سوف يحدث خلال عشرة أعوام، والبعض الآخر يقول إنه حدث بالفعل، وحينما تنظر إلى المسألة سوف تجد أن هناك ثلاثة خيارات فقط، جميعها ليست سهلة، فهم (أي الإسرائيليون) يستطيعون التخلي عن الأراضي المحتلة، يودعون الأرض والعرب ويرحلون، ولكن هذا يعني بالطبع القتال مع يهود آخرين وهم المستوطنون ولا أحد يرغب في ذلك، أو يمكنهم التمسك بالأرض ومحاولة قتل أو طرد بضعة ملايين من العرب، وهذا كابوس نازي ودعائي لا يزال يراود البعض، أو يمكنهم الاحتفاظ بالأرض والسكان والحكم بقبضة حديدية عبر سياسة التمييز العنصري، أي إن الأغلبية لا تكون لها حقوق سياسية، وهذا الاختيار هو الحادث الآن تبعاً للأمر الواقع.

لقد تطلب الصراع في الشرق الأوسط المزيد من اليهود، وبعد كل هذه السنوات من الجدال بشأن من هو اليهودي؟ أصبح الجميع يعلمون أن القادمين من روسيا مثلاً ليسوا يهوداً، وكشفت دراسة لوزير شؤون يهود الخارج عن المهاجرين القادمين من الاتحاد السوفياتي خلال عام 2000 أن اثنين من كل ثلاثة ليسوا يهوداً، وأصبح السؤال: من هو اليهودي لا يهم كثيراً، بل ما هو الصالح لليهود، أو ما هو الصالح لما يرغب اليهود فعله بدولتهم اليهودية.

هل يتحقق السلام؟

ويطرح المؤلف في الفصل الرابع الأخير سؤاله: لماذا لا يتحقق السلام؟ ويجيب: إن أي يهودي غير إسرائيلي لا يعاني من أي أمراض نفسية، يمكنه حل مشكلة السلام الإسرائيلية في عشر دقائق لو فكر تفكيراً مركزاً، ومقارنة بمشكلة قبرص أو إيرلندا الشمالية. الحقيقة أن العرب واليهود عاشوا في سلام فطري لمئات السنين تحت حكم الأتراك، ومعاداة السامية (أو الإحساس بمعاداة اليهود) تم استيراده من أوروبا، تماماً مثل الصهيونية، وليس من قبيل المصادفة أنهما أصبحا راسخي الجذور في الوقت نفسه.

وهناك حقيقة أخرى تتمثل في أن العنف المنظم من جانب الفلسطينيين ضد اليهود، لم يبدأ مع وصول اليهود الأوائل، ولا حتى مع وصول الصهاينة الأوائل إلى فلسطين، بل بدأ مع برنامج بناء المستوطنات والمصادرات والاغتيالات، بعد تحول سياسة إسرائيل تجاه فلسطين والعرب الذين يعيشون فيها، وبعد أن أصبح تبرير اليهود لمصادرتهم واستيلائهم على الأراضي واحتلالهم وعنفهم للحفاظ عليها، على أساس كونهم يهوداً، وعلى أساس الوعد الإلهي بهذه الأرض.

إن من مصلحة إسرائيل -كما يقول الكاتب- أن تتوصل بشكل فوري إلى اتفاق، بينما لا تزال قابضة على أوراق اللعب. كل هذه الأشياء ما زالت حقيقية، لكن السلام لا يبدو قريباً الآن، وهو في الواقع يبدو مجرد حلم بعيد المنال.

(أرض المدامع) سطوة الواقع وذاكرة الألم

البشير الدامون

عرض/إبراهيم الحجري

غير بعيد عن العالم المقيت، الذي صوره في روايته (سرير الأسرار) الصادرة عن دار الآداب سنة 2008 أطلق الروائي المغربي البشير الدامون روايته الجديدة (أرض المدامع) عن المركز الثقافي العربي، وتنطلق الرواية الجديدة من نفس الفضاء القديم (الدار الكبيرة) أو الماخور، وكأنه يسلح الشخصية نفسها لينطلق بها في رحاب جديدة من الحبكات والتحولات والصراعات.

تنتقل الفتاة التي فتحت عينيها في (الدار الكبيرة) لتستقر مع أسرة محافظة تتبناها وتمنحها الرعاية اللازمة كي تدرس وتتفوق في تعليمها، ثم تنتقل إلى الجامعة لاستكمال دروسها، لتجد نفسها في دوامة جديدة من العلاقات والتحديات، خاصة بعد دخولها تجربة النضال السياسي ومشاركتها في أحداث الريف الدامية سنة 1984.

سطوة الواقع

تشكل(أرض المدامع) رواية يتقابل فيها الواقع والأحلام، ويفرض التاريخ سحره ويعلن الحاضر سطوته وقسوته، حيث الساردة والسارد يهيمان في رحلة الكشف عن سر يضيء وجودهما وعن كنز يعيان أن الطريق إليه حارق.

هي رواية عن الحب والفقدان والثورة والأحلام وعن انتكاسات متبوعة بقدرة كبيرة على المقاومة والانبعاث. رواية قاسية لما تحمله بين طياتها من ألم متعدد: ألم الذات التي قدر لها أن تكون فاقدة للهوية لقيطة بلا أصول، وألم الواقع العفن الذي يستهتر بالحقوق.

واقع يتعامل فيه مع البشر على أساس أنهم أشياء تافهة: فقر وعري وفساد وقهر وعنف وتهميش ومصادرة لأبسط حقوق العيش. وألم النحس المطارد للشخوص الروائية التي فشل أغلبها في بلوغ مراميه، وتحقيق برنامجه السردي المتمثل في الكنوز المبحوث عنها، والتي أضحت كلها فخاخاً ومتاهات تتعثر فيها وبواسطتها خطوات الرواة والشخصيات.

فالساردة عانت عذاباً نفسياً داخلياً جراء حرمانها من والديها اللذين تخليا عنها قبل أن تفتح عينيها على العالم، وجراء عار لم ترتكبه ظل يطاردها طيلة حياتها مثل نحس. العار الذي سببته لها نشأتها في ماخور، ناهيك عن المأساة التي عاشتها وسكان مدينتها تطوان بفعل مشاركتهم في أحداث الريف، حيث تحولت شوارع المدينة إلى فوضى من الحرائق والجثامين والدماء، وأصابت الجيش لوثة قوية لإشعال العنف والاعتقال والتعسف والتعذيب لكل من شارك في المظاهرات الصاخبة للمطالبة بالإصلاح والتغيير، قصداً أو صدفة.

فضلاً عن ذلك، فالمحكي الروائي للدامون يستعرض نتفا من تاريخ المغرب في شقيه القديم على العهد الروماني، والحديث على عهد النظام السابق إبان سنوات الرصاص، حيث حصد القمع الهمجي أرواح الآلاف وعذب عشرات الألوف في سجون مجهولة تحت الأرض بسبب الانتفاضات الشعبية التي عرفتها كل جهات المغرب بتأطير من الفصائل الشيوعية التي نادت بالتغيير الشامل والحكم الجمهوري بدل الملكية.

في ظل الأحزان التي يؤججها مسرد الرواية لم يتبق للشخوص سوى الهروب عبر الخيال لمعانقة أحلام قد لا تجيء إلا على سبيل المجاز، وذاك ما فعلته الساردة بطلة الرواية عبر حلمها بحوريات ينتشلنها من كوابيس الواقع، قبل أن تقرر الإفلات والعودة في حين لاذ أحمد -رفيقها في النضال- بالجنون، ولاذ أمير وأسرته بالهروب إلى إسبانيا بحثا عن وكر هانئ.

كنوز ومدامع

رتب الروائي محكيه وفق تمفصلات متداخلة وعنون كلا منها بمدامع، كل مدمع ينجم عن كارثة أو خسارة سببها استتباع كنز ما. هذه الكنوز تعد بمثابة المحرك للشخصيات، وأولها كنز الثورة حيث الحلم بالتغيير التي تنشدها الساردة انسجاما مع متغيرات مجتمعية ناجمة عن عمل التيارات الماركسية وتشكل فصائل حزبية وتنظيمات سياسية تتبناها في مغرب السبعينيات والثمانينيات.

آنذاك قادت تعبئة جماهيرية شاملة توجت بإضرابات ومظاهرات عارمة ودموية في العديد من المناطق المغربية طالبت بالتغيير وأنشدت توجهات شيوعية، ومنها منطقة الريف التي تتحدث عنها الرواية، إذ قوبلت بقمع شرس

غلاف الرواية

من قبل الجيش أودى بعدد كبير من الضحايا، وامتلأت خلالها مقابر جماعية. فتحولت تلك الأحلام كوابيس وجنونا لدى الكثير ممن حلم بالكنز.

كنز الذهب المتوهم الذي أرق عائلة قصر الباشا مدفوعين برؤية مزعومة من طرف الطائفة الكناوية بالمدينة التي تستند على روايات تاريخية غير دقيقة، مما سبب كوارث نفسية ومادية أدتها الأسر المتعاقبة على القصر، وورود مثل هذه الهواجس يأتي لإبراز التناقضات التي يحبل بها المجتمع، ففي الوقت الذي تموت فيه الألوف من أجل تحسين الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للبلد، ينهمك آخرون في البحث عن كنوز وهمية لا وجود لها إلا في معتقداتهم الواهية.

كنز الجسد، الذي يؤرق الساردة خاصة وأنها متهمة في عرضها بكونها ترعرعت في دور الدعارة وتربت على يد وسيطة، لذلك فهي تسعى للحفاظ على طهارة جسدها وعفتها، وقضت أوقاتاً عصيبة تصارع الذات والآخر حفاظا على شرفها المهدد في مجتمع ذكوري لا يرحم، وإن كانت هذه المناعة تهاوت في كثير من اللحظات أمام غول الحب والرغبة القاهرتين.

وبين هذه التمفصلات والأحلام والخيبات، تبقى رواية (أرض المدامع) حفرية ثانية من حفريات الدامون في تاريخنا الشخصي المنسي، وترميما لشروخ ذاكرة أفزعتها العواصف والهبات العنيفة.

الفن الإسلامي والعمارة .. العقيدة والإبداع

ريتشارد اتنغهاوزن
أوليغ غرابار
ماريلين جنكينس

ترجمة:عبد الودود العمراني

أحمد الشريقي

غلاف الكتاب

يتجاوز كتاب الفن الإسلامي والعمارة (650-1250) لمؤلفيه ريتشارد اتنغهاوزن وأوليغ غرابار وماريلين جنكينس، ومترجمه عبد الودود العمراني، كونه مجرد شغف استشراقي بالفن الإسلامي -وهو المنهج الذي طبع كتبا كثيرة وقعت في أسر فتنة الفن الإسلامي لفترات طويلة- إلى اعتباره واحداً من المراجع الحديثة للفن والعمارة الإسلامية لرصانته العلمية وحفره العميق في أسس الفن الإسلامي كجزء من مخرجات الحضارة الإسلامية منذ بزوغ نجمها في بدايات القرن السابع الميلادي.

كما يتعدى الكتاب الأنيق بمحتوياته الإبهار البصري، باشتماله على روائع التحف الإسلامية، والرحلة السياحية البصرية في العمارة الإسلامية، بل وظف تلك التحف كدلالات علمية ضمن إطار الصنعة الإسلامية، وتأثرها بما عاصرها وجاورها وسبقها من فنون انفتحت عليها قريحة الفنان المسلم عبر ستة قرون من الإبداع، وهو ما يبرز دراسة ومنهجية الكتاب.

وإذا كان من الصعب التوقف عند مقولات الكتاب الذي يقع في ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الطويل وضمن ثمانية فصول وهوامش طويلة، فإنه لا بأس من المرور السريع على بعض مفاتيح الكتاب الذي لا غنى لأي باحث ودارس في مجال الفن في العصر الإسلامي الأول عن هذا الكتاب، سواء من الناحية العلمية والأكاديمية الرفيعة أو من ناحية أسلوب كتابته المبسط الذي لا يحتاج إلى معرفة مسبقة بموضوعه.

بيد أن اللغة المبسطة للكتاب يقف خلفها مترجم متمكن هو عبد الودود العمراني، بحسب المؤلفين الذين وجدوا أنه «لم يكتف بإظهار قدرة نادرة في معالجة البنية المعقدة لنص علمي طويل وحسب، بل تعامل بأريحية مع مفردات تقنية لا يوجد لها مقابل في كثير من الأحيان باللغة العربية، أبعد من ذلك لجأ العمراني في معاينته للنص إلى الحفر في مفردات أجنبية وردها إلى أصولها العربية، وخصوصاً فيما يتعلق مع أسماء لتقنيات فنية استخدمها الفنانون في عصور غابرة، وكادت أن تطمس من قاموس العربية.

دواعي النشر

ويحدد مؤلفو الكتاب دواعي نشره، فقد حظي الفن الإسلامي في العقود الأخيرة، باهتمام بدراسته متجاوزاً ما كان يعد اهتماما حصرياً للمؤرخين والعارفين خاصة في الغرب، ليشمل تشكيلة عريضة من القراء في بلدان عديدة على أن الزيادة الأهم في القراء هي بين أوساط الطلبة والعلماء وجامعي التحف الفنية.

ويلحظ الكتاب أن رغبة القراء في التعرف على هذا الفن إنما هي ناجمة عن إدراك متزايد منهم للإسهامات العظيمة التي قدمتها الحضارة الإسلامية للفن العالمي.

ومن هذه الإسهامات الحضارية مختلف طرائق الفن والتشييد، وتصنيع التحف الفنية واستخدام التقنيات المزخرفة وهو ما يعرف بالفن الوظيفي، وعلى هذا الأساس فقد استخدمت التحف المزخرفة من الناس بكافة مشاربهم من حكام منتمين إلى أصول عرقية مختلفة إلى تجار وأثرياء وصولاً إلى الناس البسطاء، وربات البيوت من النساء ومن أقوام مختلفة من غير المسلمين، مسيحيين ويهود وزردشتيين ووثنيين.

في الكتاب يبين المؤلفون منهجيتهم التي تتبدى في الفصول الثمانية، والتي تتركز على الانصراف عن تحديد ودراسة تاريخية الفن عبر السلالات الحاكمة للأقاليم الإسلامية، إلى اعتماد منهج يقوم على نسبة هذا الفن إلى أقاليم محددة وهي الأقاليم الإسلامية الوسطى، والغربية، والشرقية، إضافة إلى دراسة خاصة بالفن الإسلامي وغير المسلمين.

يسبق الحديث عن كل إقليم بتمهيد تاريخي يدرس ويتابع ويعرض للفن وإرهاصاته وتشكله، ومن بين كتب قليلة يذهب المؤلف بعيدا إلى إرهاصات وبدايات الفن الذي نشأ وأزهرت إبداعاته في فترة قصيرة نسبياً، وفي تحديده لمفهوم الفن الإسلامي باعتباره أحد مفاتيح منهج التأليف يرى واضعو الكتاب أن الفن الإسلامي يشير إلى كل المنشآت وآثار الثقافة المادية التي أنشأها المسلمون أو أنتجت للناس الذين عاشوا في ظل حكام مسلمين، أو في كيانات اجتماعية وثقافية تأثرت بقوة بأنماط الحياة والفكر التي تميز الإسلام.

قرون من الفتنة

يلحظ الكتاب السرعة الهائلة التي انتشر فيها الإسلام وأثر ذلك على الفن، ففي عام 622 ميلادي هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وفي العام 750 ميلادي كانت الجيوش الإسلامية قد اخترقت جنوب فرنسا، وفي الأثناء تأسست مدن جديدة في شمال أفريقيا، كما شيدت قبة الصخرة في القدس.

وفي خلاصة فإن الفن الإسلامي لم يتطور تدريجيا عند التقاء الدولة والعقيدة الجديدتين، بأية تقاليد قديمة تواصلت في المناطق التي امتد إليها النفوذ بل يكاد يكون بروز الفن الإسلامي فجائيا مثل عقيدته ودولته.

وفي قراءته للمناخ الفني لدى ظهور الإسلام يعرج الكتاب على المعمار قبل ظهور الإسلام والفضاءات التي حكمت بنيته، مشيراً إلى الكعبة الشريفة، وبيت النبي صلى الله عليه وسلم والذي يتألف من باحة مربعة بسيطة وعدد قليل من الغرف على الجانب ورواق من جذوع النخل مغطى بسعف، ويحوي الكتاب مسقطا للبيت.

يتابع الكتاب قراءته في فصل ثان، للفنون في الأقاليم الإسلامية الوسطى والتي يقع ضمنها قبة الصخرة المشرفة، التي تعد أقدم منشأة معمارية إسلامية مازالت قائمة حتى الساعة، وكان قد اكتمل بناؤها العام 71 هجري الموافق لـ691 ميلادي، كما يقع ضمن هذا الإقليم الجامع الأموي في دمشق والعديد من الأماكن المعمارية الأخرى.

بخلاصة فإن كتاب الفن الإسلامي الصادر عن هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة وهو الجزء الأول ضمن مشروعها في التعريف بالفن الإسلامي يمثل في لوحاته وعروضه وتمهيداته التاريخية سياحة حقيقية في قرون الإبداع والعمارة الإسلامية تنقل متصفح الكتاب إلى قرون من الدهشة والفتنة.